

الماء في ضوء الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

إعداد:

أ.د. سليمان بن صالح القرعاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

كلية التربية - جامعة الملك فيصل - الأحساء

١٤٢٦هـ

الماء في ضوء الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

ملخص البحث:

الإعجاز العلمي هو: ما ورد في القرآن الكريم، من معانٍ، وإشاراتٍ، تتصل بحقائق، ثبتت صحتها في ميدان العلوم النظرية والتجريبية وغاية التفسير العلمي: الكشف عن الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم؛ لتبين وجهًا جديدًا من إعجازاته التي لا تنتهي حتى تضيف إلى إيماننا بالله ورسوله وكتابه قوةً تدفع عنه ما يواجهه الإسلام والمسلمين من عداء.

والماء نعمة من نعم الله على هذا الكون، وهو مصدر الحياة والرزق، وما ورد في القرآن عن الماء يعد وثيقة من الوثائق التي يعتمد عليها المسلمون في تنظيم العلاقة بين الإنسان وما خلقه الله للإنسان وسخره له وكرمه به، وقد توصل الباحث إلى أن كثيرًا من الخبراء يؤكد أن الحرب القادمة هي: حرب الماء، ومن ثمَّ فإنَّ على الأمة أن تستقصي السبل التي توفر بها الماء، وتؤمن حصولها عليها، وأن تسعى لاكتشاف مصادر جديدة ووسائل جديدة للحصول على الماء.

المقدمة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (١).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ (٢).

علمية التفسير: تعيين التفسير المؤسس على أسس صحيحة، من الحقائق النقلية، والعقلية، وتعني المنهج الصحيح، في النظر، والاستدلال، والتأويل.

أما مصطلح التفسير العلمي، للقرآن الكريم، فهو: الكشف عن معاني الآيات، في ضوء ما ثبتت صحته، من نظريات العلوم الكونية.

والإعجاز العلمي، هو: ما ورد في القرآن، من معاني، وإشارات، تتصل بحقائق ثبتت صحتها في ميدان العلوم النظرية والتجريبية، وغاية التفسير العلمي: الكشف عن الحقائق العلمية، التي أشار إليها القرآن الكريم؛ لتبين وجهًا جديدًا من إعجازاته التي لا تنتهي؛ حتى تضيف إلى إيماننا بالله، ورسوله وكتابه قوةً تدفع عنه ما يواجهه الإسلام والمسلمين من عداء.

يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣)

وقد وردت لفظة: "الماء"، في القرآن الكريم ٦٣ مرة، وتعددت الوظائف السياقية والموضوعية للماء في هذه المواضيع الثلاثة والستين. والحقيقة الأولى، التي تتصل بالماء هي أنه: لا حياة لكائن على سطح الأرض إلا بالماء، فالماء مصدر الحياة وقد أنزله الله من السماء بقدر، وهو محفوظ وموجود بقدره الله ولكل من الماء العذب والماء المالح مواضع في الأرض محفوظ فيها لمنفعة الإنسان وغيره من الكائنات.

(١) سورة الكهف، الآيتان ١ - ٢.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٣.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ﴾ (٤)

خلق الله الماء، فكان معجزة الوجود: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ (٥)

وخلق من الماء كل شيء حي، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٦)

وكان الماء نعمة كبرى، من نعم الله، التي أنعمها على الإنسان وعلى الكائنات الحية.

وهو بركات من الله ورحمة ومصدر للحياة والرزق، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (٧).

وهو من أعظم نعم الله في هذا الوجود ورحمة من رب العزة، وقد أنزل الله الماء بقدر:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ (٨).

والماء وسط صالح للحياة، كالهواء، فقد جعل الله البحار والمحيطات مستودعًا نافعا

لل بشرية ومصدر من مصادر الطعام والدواء والكساء والمعادن النافعة والمواد النادرة: كالأملاح

المتنوعة ذات الفائدة العالية الضرورية للحياة البشرية.

وبعد، فإن ما ورد عن الماء في القرآن يُعدُّ وثيقةً من الوثائق التي يعتمد عليها المسلمون في تنظيم

العلاقة بين الإنسان وما خلقه الله للإنسان وسخره له وكرمه به؛ ليكون الإنسان كما أراد الله

خليفته في أرضه يسكنها ويسعى في مناكبها وينعم بما أفاء الله عليه من النعم، قال تعالى:

﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلنَّاسِ﴾ (٩).

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٠).

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٨) سورة المؤمنون، الآية: ٤٩.

(٩) سورة المائدة، الآية: ٩٦.

(١٠) سورة النحل، الآية: ١٤.

وقد تضمن البحث الموضوعات التالية:

أولاً: الماء مصدر للحياة.

ثانياً: التوازن فيما يتصل بالماء.

ثالثاً: البحار، والمحيطات، مستودع البشرية، في الطعام، والكساء.

رابعاً: البحار، مستودع كثير من المعادن، والأملاح النادرة.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج.

أولاً: الماء مصدر للحياة:

الغلاف المائي للأرض: هو كل ما يوجد على سطحها، من: ماء البحار، والمحيطات، والأنهار، والبحيرات، يغطي حوالي ٧١ ٪ من سطح كوكب الأرض.

ومساحة الغلاف المائي أكبر من مساحة اليابسة لحكمة إلهية؛ حتى يتم تلطيف مناخ الأرض بتوزيع درجات الحرارة على سطحها، توزيعاً عادلاً، ولولا هذا لأصبحت فروق درجات الحرارة على الأرض هائلة، لدرجة لا تسمح بقيام الحياة تماماً، مثل حالة كوكب القمر الخالي من الماء الذي تصل درجة حرارته، إلى درجة الغليان^(١١)، وكذا... فإن مقدار الماء على سطح الأرض محسوبٌ، ومقدَّرٌ بحكمة الله - تعالى - وعنايته بخلقه، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَفَادِرُونَ ﴾^(١٢) وقوله - أيضاً -: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾^(١٣). ويتجلى وضوح هذه الآية كلما تقدّم الإنسان في المعرفة وكلما اهتدى إلى تركيب هذا الكون وتكوينه ومدلول [خزائنه]، وعرف أن خزائن الماء الأساسية، هي: ذرات "الهيدروجين والأكسجين"، وأن من خزائن الرزق المتمثل في النبات الأخضر كله ذلك: "الأزوت"، الذي في الهواء، وذلك الكربون وذلك الأكسجين المركب في ثاني أكسيد الكربون وتلك الأشعة التي ترسل بها الشمس - أيضاً - ومثل هذا كثير يوضح خزائن الله التي توصل الإنسان إلى شيء منها^(١٤) وقد كرم الله - سبحانه وتعالى - مكانة الماء وأهميته في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾^(١٥).

(١١) راجع الكون والإعجاز العلمي للقرآن، د. منصور حسب النبي، ص ١٨٧.

(١٢) سورة المؤمنون، الآية ١٨.

(١٣) سورة الحجر، الآية ٢١.

(١٤) القرآن والكون، د. محمد عبد الله الشرقاوي ص ٨٤، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زغلول

النجار ص ٤، المعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة، د. أحمد شوقي إبراهيم ص ٣٣-٣٤.

(١٥) سورة هود، من الآية: ٧.

١- تسخير الماء لنفع الإنسان:

وقد سخر الله - تعالى - الماء لمنفعة الإنسان، كما سخر له كل ما في الكون، وأشار القرآن إلى أنواع التسخير بالنسبة للماء بأنه يأتي فيكون رزقاً. قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٦).

لقد كان قوم موسى - عليه السلام - بين الصحراء بجديها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها، أما الحجر الصلد فقد أنبع الله لهم منه الماء. وأما السماء، فأنزل لهم منها المن والسلوى (عسلاً وطيراً)، ولكن البنية النفسية والجبلة المتداعية في بني إسرائيل أبت عليهم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجهم نبيهم من مصر.

أخرجهم من الذل والهوان، وغير ذلك مما لا قوّة على يد فرعون، فعل نبيهم ذلك؛ ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعفة، وللحرية ثمن وللعزة تكاليف، ولكنهم أبوا أن يدفعوا الثمن، وأن يقدموا الفدية لخالق الأرض والسماء؛ فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف والتشتت في كون الله الفسيح، وكتب عليهم ذلك (١٧)، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ (١٨).

٢- يأتي الماء فيكون بركات:.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (١٩)، والبركات التي يعد بها الله الذين يؤمنون ويتقون في يقين وتأکید ألوان شتى من الفيض

(١٦) سورة البقرة، الآية ٦٠.

(١٧) في ظلال القرآن، سيد قطب ١ / ٧٤.

(١٨) سورة الأعراف، من الآية ١٦٧.

(١٩) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

الهابط في كل مكان، والبركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى: بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة، وبركات تنمي الأعمار وتزكيها.

٣- يأتي الماء، فيكون نعمة:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (٢٠) عندما يسمع الناس كلمة "الرزق"، في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (٢١) لا يتبادر إلى أذهانهم إلا صورة الكسب للمال، ولكن مدلول الرزق أوسع من ذلك بكثير. إن أقل رزق يُرزقه الإنسان في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق نظام دقيق يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتناسقة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود، ولم يكن له بعد وجوده حياة وامتداد. ويكفي ما ذكر في هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر؛ حتى يدرك الإنسان كم هو مكفول بعناية الله ورعايته.

٤ - يأتي الماء، فيكون رحمة:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٢).

يجمع في هذه الآيات بين إرسال الرياح مبشرات وإرسال الرسل بالبينات، عندها ينتصر المؤمنون بإرسال الرسل. كما أنها تحيي الأرض الموات بإنزال المطر، وإذا حيت الأرض بالماء، فإن الأموات جميعًا يعودون للحياة يوم البعث، وهو جمع له مغزاه؛ لأن الجميع من رحمة الله - تعالى -، وكلها تتبع سنة الله، وبين نظام الكون الذي أبدعه خالق الأرض والسماء، وبين إرساله الرسل بالإيمان والهدى، ونصر المؤمنين عند ذلك، كلها صلوات وثيقة وحلقات مترابطة وكلها من آيات الله - تعالى -.

(٢٠) سورة إبراهيم، من الآية ٣٤.

(٢١) سورة إبراهيم، من الآية ٣٢.

(٢٢) سورة الروم، الآية ٤٦.

قد أشار القرآن الكريم إلى الجانبين المعنوي والمادي للماء، وأن الماء هو أساس التطهير والتثبيت، وأن الله - سبحانه وتعالى - خلق من الماء كل شيء حي، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (٢٣).

نزلت هذه الآية في غزوة بدر، عندما نزل المسلمون على غير ماء، أمام صناديد قريش (٢٤)، والماء في الصحراء مادة الحياة فضلاً أن يكون أداة من أدوات النصر والجيش الذي يفقد الماء في الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة.

يقول ابن عباس - رضي الله عنه -: أصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله - تعالى - وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبن...؟! (٢٥).

عندها أمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرمل حيث أصابه المطر. فساروا إلى القوم ونصرهم الله نصرًا مؤزرًا. والماء هو أساس الحياة على سطح الأرض وشرط من أهم شروط استمرارها وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى أن الماء هو سبب نشوء الحياة على كوكب الأرض. وقد خلق الله - سبحانه وتعالى - من الماء البشر والدواب، وكل ما هو كائن حي على الأرض. ويشكل الماء منافع كثيرة تخدم الحياة على الأرض وتيسر للإنسان معيشته فيها، يقول - سبحانه -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٢٦).

وقال - أيضاً -: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ (٢٧).

(٢٣) سورة الأنفال، الآية ١١.

(٢٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٣، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية - دراسة تحليلية، د. مهدي رزق الله أحمد، ص ٣٤٤.

(٢٥) صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، في تفسير القرآن الكريم، ص ٢٤٨.

(٢٦) سورة الأنبياء، من الآية ٣٠.

(٢٧) سورة الأنعام، من الآية ٦.

وقال - أيضاً - : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨).

وقوله - تعالى - : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ (٢٩).
فمن هذا الجنين يتخلق الجنين: ذكر أو أنثى. وهذه الحياة البشرية الناشئة من هذا الماء أعجب وأضخم من تلك الحياة الناشئة من ماء السماء، فمن خلية واحدة من عشرات الألوف الكامنة في نقطة واحدة من ماء الرجل تتحد ببويضة المرأة في الرحم ينشأ هذا الخلق المعقد المركب (الإنسان)، أعجب الكائنات الحية على الإطلاق ومن الخلايا المتشابهة والبويضات المتشابهة ينشأ ذكور وإناث بطريقة عجيبة لا يدرك البشر سرها ولا يستطيع علم البشر ضبطها أو تعليلها؛ لأنهما هبة من الله - تعالى - .

ومن خصائص علمه: ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (٣٠) ولو راح الإنسان يدقق في هذا الماء الذي يخلق منه الإنسان؛ لأدركه الدوار وهو يبحث عن خصائص الإنسان الكاملة في الأجسام الدقيقة البالغة الدقة التي تحمل عناصر الوراثة للجنس كله لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى، كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة من خلق واتجاه في طريق الحياة (٣١)، فسبحان الخلاق العليم الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم.

(٢٨) سورة النور، الآية ٤٥.

(٢٩) سورة الفرقان، الآية ٥٤.

(٣٠) سورة الشورى، من الآية ٤٩.

(٣١) خلق الإنسان بين الطب والفقهاء، د. محمد على البار ص ١١١ - ١١٥.

والماء مصدر رزق للإنسان:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٢).

قال سيد قطب: " وقصة الماء في الأرض، ودوره في حياة الناس وتوقف الحياة عليه في كل صورها وأشكالها.. كل هذا أمر لا يقبل المماحكة فتكفي الإشارة إليه والتذكير به في معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهاب... فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الإنسان وسماؤه مبنية بنظام معين بالماء الذي تخرج به الثمرات، رزقاً للناس... والفضل في هذه كله للخالق الواحد" (٣٣).

ثانياً: التوازن فيما يتصل بالماء:

أشار القرآن الكريم في العديد من آياته البينات إلى أن نزول الماء من السحاب على سطح الأرض، لا يتم بمحض الصدفة بل إن نزوله يتم بمشيئة الله - عز وجل - وإرادته بقدر مقدر تقديرًا محكمًا، فالماء على وجه البسيطة، آيات من آيات الله - تعالى - التي لا تعد ولا تحصى، يقول الله - تعالى - في محكم كتابه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٣٤) وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (٣٥).

يقول صاحب الظلال: "الماء نازل من السماء، ونزوله له علاقة بتلك الأفلاك، فتكوين الكون على نظامه، هذا هو الذي يسمح بنزوله من السماء، ويسمح كذلك بإسكانه في باطن الأرض".

(٣٢) سورة البقرة، الآيتان ٢١، ٢٢.

(٣٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤٧/١.

(٣٤) سورة القمر، الآية ٤٩.

(٣٥) سورة المؤمنون، الآية ١٨.

ونظرية أن المياه الجوفية ناشئة من المياه الآتية من المطر، وأنها تتسرب في باطن الأرض فتحفظ هناك نظرية حديثة، فقد كان المظنون - إلى وقت قريب - أنه لا علاقة بين المياه الجوفية والمياه السطحية.

ولكن ها هو كتاب الله - تعالى - يقرر الحقيقة قبل ألف وثلاثمائة عام: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بتقدير وتدير لا هو كثير فيغرق ويفسد، ولا أقل مما يحتاجه كوكب الأرض فيكون الجذب والهلاك الذي لا يبقي ولا يذر ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ فيغور في طبقات الأرض البعيدة، أو يذهب هباء في الصحاري القاحلة، أو بغير هذا من الأسباب . فالذي أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته.

إنما هو فضل الله على عبده، وخلقه^(٣٦)، وهو الرحيم الودود، وهو أرحم بعبده من أنفسهم وصدق ربي في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٣٧).
يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٣٨).

"كل شيء: كل صغير، وكل كبير، كل ناطق، وكل صامت، كل متحرك، وكل ساكن، كل معلوم، وكل مجهول، كل شيء خلقه الله - تعالى - بقدر.

إن إدراك التناسق بين الضوابط التي تضبط الحياة والتنسيق بين الأحياء والظروف المحيطة ما يعطي فكرة عن تلك الحقيقة الكبيرة التي تشير إليها هذه الآية.

يطيب لنا أن نقدم بعض التوازنات في علاقة الأحياء مع بعضها البعض فوق هذه الأرض المبسوطة، فترى أن الجوارح التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد؛ لأنها قليلة البيض قليلة التفريخ، وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار، ولو كانت مع عمرها الطويل كثيرة التفريخ؛ لقضت على صغار الطيور وأفتتها على كثرتها.

(٣٦) راجع ظلال القرآن سيد قطب، ٤ / ٢٤٦١.

(٣٧) سورة الأعراف، من الآية ١٥٦.

(٣٨) سورة القمر، آية ٤٩.

يحدث هذا للحكمة التي قدرها الله - تعالى - بقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾
ومن هنا تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح وصغار الطير.

والذبابة: تبيض ملايين البويضات، ولكنها لا تعيش أكثر من أسبوعين، ولو طال
عمرها بعض الأعوام لغطى الذباب وجه الكرة الأرضية بنتاجه، ولغدت حياة كثير من الأجناس
- وأولها الإنسان - مستحيلة على وجه الأرض.

ولكن عجلة التوازن التي لا تختل في يد القدرة التي تدبر هذا الكون قد وازنت بين كثرة
النسل وقصر العمر، وصدق العليم الخبير: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾.

وهذا التنسيق الدقيق على صفحة الكون، بيد القدرة المبدعة قد زود كل حي من
هذه الأسلحة بسلاح يتقي به هجمات الأعداء ويغالب به خطر الإبادة والفناء، وتختلف
هذه الأسلحة، وتتنوع: فكثرة العدد سلاح، وقوة البطش سلاح، وبينهما ألوان وأنواع.

فالحيات الصغيرة مزودة بالسم وبسرعة الهروب من أعدائها.

والثعابين الكبيرة زودت بقوة العضل مع قلة السموم.

والخنفساء - وهي قليلة الحيلة - زودتها القدرة الإلهية بمادة كاوية، ذات رائحة كريهة،

تصبها على كل من يلمسها أو يقترب منها؛ وبذلك تكون بمنأى عن مخالب الأعداء.

وليس هذا فحسب، بل زود كل حي من الأحياء الصغار والكبار بالخصائص

والوسائل التي يحصل بها على طعامه ويتقي صولة الأعداء أو عاديات الفناء، حتى يأتي القدر

الذي حدده خالق الكون لها.

وإذا انتقلنا إلى الإنسان عندما يكون بويضة تم تلقيحها بالحيوان المنوي، نراها تلتصق

بالرحم وهي مزودة بخاصية أكالة، فنراها تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم

المناسب لامتصاصها ونموها.

فإذا تم تخليقه، زودته القدرة الإلهية بما يسمى بـ: "الحبل السري"، الذي يربط الجنين

بأمه؛ ليتغذى منها حتى يتم وضعه.

وقد راعت القدرة الإلهية في تكوينه ما يحقق الغرض دون إطالة، قد تسبب تخمر الغذاء فيه، أو قصر مخل، قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء عليه - دون الحاجة إليه - فيكون عاملاً من عوامل الضرر.

والثدي يفرز في حماية الحمل وبدء الوضع سائلاً أبيض مائلاً إلى الاصفرار، ومن عجيب صنع الله - سبحانه - أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذائبة تقي الطفل عدوى الأمراض.

وفي اليوم التالي للميلاد، يبدأ اللبن في التكوين. ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوماً بعد يوم.

ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التي تزيد على حسب زيادة الطفل، بل إن تركيب اللبن تتغير مكوناته وتتركز مواده.

ثم ماذا...؟! ترى يد القدرة المدبرة الرعاية الكاملة له، وهي مرتبة بحيث أن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى، وهذه الإفرازات معقدة التركيب تعقيداً معجزاً، وأن أي اختلال في إفرازها يسبب تلفاً عاماً في الجسم يبلغ حد الخطورة إذا دام هذا الاختلال وقتاً قصيراً.

ولقد زودت القدرة الخالقة المبدعة الأسود والنمور والذئب والضباع وكل الحيوانات الكاسرة التي تعيش في الفلاة بأنياب قاطعة وأسنان حادة، وأضراس صلبة، ولأرجلها عضلات قوية سلحت بأظافر ومخالب حادة تساعدها في الهجوم على الفريسة، وحوت معدتها الأحماض والإنزيمات الهاضمة للحوم والعظام.

و"الأميبا": كائن حي، دقيق الحجم يعيش في البرك والمستنقعات ولا يرى بالعين - إطلاقاً - وإنما يرى عن طريق المجهر، كتلة هلامية يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات، فعندما تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد كالأقدام للسير بها على المكان المرغوب، وإذا وجدت غذاء أمسكت به. وتفرز عليه عصارة هاضمة فتتغذى بالمفيد منه، أما الباقي

فتطرده من جسمها، وهي تتنفس من كل جسمها بأخذ الأكسجين من الماء^(٣٩). وصدق ربي في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(٤٠).

فهي إشارة واحدة أو كلمة واحدة، يتم بها كل أمر: الجليل، والصغير سواء، وليس هناك جليل، ولا صغير، إنما ذلك تقدير البشر للأشياء وليس هناك زمن، ولا يعادل لمح البصر، إنما هو تشبيه؛ لتقريب الأمر إلى حس البشر، فالزمن إن هو إلا تصور بشري، ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة المحدودة. ولا وجود له في حساب الله - تعالى - المطلق من هذه التصورات المحدودة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤١).

ليس هناك قريب ولا بعيد، وليس هناك صعب ولا سهل، فتوجه إرادة العليم الخبير لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائنًا ما يكون.

فسبحانك لا راد لقضائك ولا معطل لحكمك، وأنت على كل شيء قدير . ومن ذلك - أيضًا - : عدم تعدي الماء العذب أو الماء المالح على الآخر؛ لوجود البرزخ بينهما.

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٤٢) شاهد الإنسان منذ القدم: النهر يصب في البحر، ولاحظ أن ماء النهر يفقد بالتدرج لونه المميز وطعمه الخاص كلما تعمق في البحر.

ومع تقدم العلم وانطلاقه لاكتشاف أسرار الكون، أخذ يبحث عن كيفية اللقاء بين البحر والنهر، ودرس عينات من الماء حيث يلتقي النهر بالبحر ودرس درجات الملوحة والعدوية بأجهزة دقيقة، وقاس درجات الحرارة وحدد مقادير الكثافة.

وبعد مسح لعدد كبير من مناطق اللقاء بين الأنهار والبحار، اتضحت للعلماء بعض الأسرار التي كانت محجوبة عن الأنظار، واكتشف الباحثون أن المياه تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

(٣٩) راجع في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٧/٣٤٣٦ - ٣٤٤١ بتصرف.

(٤٠) سورة القمر، الآية ٥٠.

(٤١) سورة يس، الآية ٨٢، وانظر في ظلال القرآن سيد قطب ٢٧ / ٣٤٤١ .

(٤٢) سورة الرحمن، الآيات ١٩ - ٢١ .

- ١- مياه الأنهار، وهي شديدة العذوبة.
 - ٢- مياه البحار، وهي شديدة الملوحة.
 - ٣- مياه في منطقة المصب، مزيج من الملوحة والعذوبة، وهي منطقة فاصلة بين النهر والبحر وجزره، وفيضان النهر وجفافه، وتزداد الملوحة فيها كلما قربت من البحر، وتزداد درجة العذوبة كلما قربت من النهر.
 - ٤- يوجد برزخ مائي يحيط بمنطقة المصب، ويحافظ على هذه المنطقة بخصائصها المميزة لها حتى ولو كان النهر يصب في البحر من مكان مرتفع في صورة شلال.
 - ٥- عدم اللقاء المباشر بين ماء النهر وماء البحر في منطقة المصب بالرغم من حركة المد والجزر وحالات الفيضان والانحسار التي تعتبر من أقوى عوامل المزج؛ لأن البرزخ المحيط بمنطقة المصب، يفصل بينهما على الدوام. (٤٣)
- وهذا النظام البديع، قد جعله الله - تعالى - لحفظ الكتل المائية الملتقية من أن يفسد بعضها خصائص البعض الآخر؛ ليبقى ذلك الاختلاف رحمة للناس وسائر الكائنات.
- وإذا كانت العين المجردة لا تستطيع أن ترى هذا الحاجز، الذي يحفظ الله - تعالى - به منطقة المصب، فإن الأقمار الصناعية اليوم قد زودتنا بصورة ماهرة تبين لنا حدود هذه الكتل المائية الثلاث التي تزداد وضوحًا كلما ازداد الفارق في حرارة الماء وما يحمله من مواد (٤٤).
- لقد حارت العقول الكبيرة عدة قرون بعد نزول القرآن الكريم في فهم الدقائق والأسرار، وكيف جاء العلم موضحًا ومبينًا ما توقفت العقول في فهمه، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿
- وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (٤٥) وقوله أيضا: ﴿

(٤٣) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، يوسف الحاج أحمد، ص ٤٤٩.

(٤٤) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، ص ٢٣.

(٤٥) سورة النمل، من الآية ٩٣.

(٤٦) سورة ص، الآية ٨٨.

ويقول وحيد الدين خان في تفسير قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٤٧).

وقوله تعال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٤٨).

إن الظاهرة الطبيعية، التي يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور، وهي: أنه إذا ما التقى نهران في ممر مائي واحد، فماء أحدهما لا يدخل (أي: لا يذوب) في الآخر. وهناك على سبيل المثال: نهران يسييران في: "تشاتغام" بباكستان الشرقية، إلى مدينة: "أركان" في: "بورما"، ويمكن مشاهدة النهرين مستقلاً أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيط يمر بينهما حدًا فاصلاً، والماء عذب في جانب، وملح في جانب آخر. هذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث المد البحري" ولكنهما لا يختلطان.

ويبقى الماء عذبًا، تحت الماء الأجاج. وهكذا شاهدت عند ملتقى نهري الكنج والجامونا في مدينة: "الله أباد" فهما - رغم التقائهما - لم تختلط مياههما، ويبدو أن خيطاً فاصلاً يميز أحدهما من الآخر (٤٩).

نقول: إن هذه الظاهرة معروفة من قديم، ولكن لم يكتشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين. فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة، يسمى قانون "المط السطحي"، وهو يفصل بين السائلين؛ لأن تجاذب الجزيئات يختلف من سائل لآخر، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله، وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون الذي عبّر عنه القرآن الكريم، بقوله سبحانه: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٥٠).

(٤٧) سورة الرحمن، الآيتان ١٩ - ٢٠.

(٤٨) سورة الفرقان، الآية ٥٣.

(٤٩) راجع الإسلام يتحدى، ص ١٤٢.

(٥٠) سورة الرحمن، آية ٢٠، وانظر: الكون والإعجاز العلمي في القرآن د. منصور حسب النبي ص ١٩١.

وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، كما أنها لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة. ونستطيع أن نقول: إن المراد من "البرزخ" إنما هو "المط"، أو "التمدد السطحي" الذي يوجد في الماءين، والذي يفصل أحدهما عن الآخر.

ويرى الأستاذ: محمد متولي، أن المسطحات البحرية، حول جزر البحرين، هي التي يتوافر فيها بجران، أحدهما: ملح أجاج (مياه الخليج العربي)، والآخر عذب فرات (مياه ينابيع مجموعة الكوكبات)، وفي هذه المسطحات البحرية يلتقي الماء العذب والماء المالح - معًا -، ويتوافر فيها البرزخ المائي الذي بدوره نتيجة لشدة انبثاق مياه العيون البحرية، وقوة اندفاع المياه إلى أعلى وهو حاجز لا يجعل أحد البحرين: (الملح الأجاج، والعذب الفرات) أن يبغى على الآخر، ومنهما - أيضا - يُستخرج اللؤلؤ، والمرجان ... (٥١).

لاحظ العلماء اختلاف الكتل المائية الثلاث: (ماء النهر، ماء البحر، ماء المصب) في درجة الملوحة والعذوبة ووجدوا أن معظم الكائنات التي تعيش في البحر والنهر والمصب تموت إذا خرجت من بيئتها الخاصة بها، فما يعيش في النهر لا يعيش في البحر أو في المصب، وهكذا...

ثم قاموا بتصنيف البيئات الثلاث: (النهر والبحر والمصب) باعتبار الكائنات التي تعيش فيها، فوجدوا أن منطقة المصب، تعد منطقة حرج على معظم الكائنات الحية التي تعيش فيها، فهي لا تعيش إلا في وسط مائي يتناسب في ملوحته وعذوبته مع درجة الضغط الأسموزي فيها، وتموت إذا خرجت من منطقة المصب.

وبالمقابل فإن منطقة المصب تعد - أيضاً - منطقة محجورة عن معظم الكائنات الحية التي تعيش في البحر والنهر؛ لأن هذه الكائنات تموت إذا دخلتها؛ وذلك بسبب اختلاف

(٥١) من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم د. حسن أبو العينين، ص ٢٤٣.

الضغط الأسموزي - أيضًا -، والعجيب أن القرآن الكريم وصف منطقة المصب بمذنين الوصفين، فقال: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾^(٥٢).

ونستطيع أن نفهم الحِجْرَ هنا، في ضوء الاكتشافات الحديثة، بأن الكائنات الحية في منطقة المصب تعيش في حجر ضيق ممنوعة من أن تخرج من هذا الحجر . كما وصفت منطقة المصب - أيضًا - بأنها محجورة، أي: ممنوعة عن كائنات حية أخرى من أن تدخل إليها، فمنطقة المصب - حسب الوصف القرآني - هي: "حِجْرًا" على الكائنات التي فيها، و"مَحْجُورَة" عن الكائنات الحية الموجودة خارجها.

والذي نستخلصه أن العلماء لاحظوا الفرق الجوهرى، الذي أشار إليه القرآن الكريم، بين الحاجز الذي يفصل بين النهر والبحر، وبين الذي يفصل بين البحار المالحة.

فالأول: منطقة المصب، فهي تعدُّ منطقة حجر، على الكائنات الحية الخاصة بها، ومنطقة محجورة عن الكائنات الخاصة بالبحر والنهر، وهو ما وصفه البيان الإلهي، في سورة الفرقان، حيث قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾^(٥٣).

أما الحاجز الثاني: الذي يفصل بين البحار المالحة فإنه لا توجد فيه خاصية منع الكائنات الحية من الخروج أو الدخول إليه، وهذا هو الذي تحدثت عنه آيات سورة الرحمن، فقال جل ذكره: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾^(٥٤) فليس هناك وصف: "حجرًا محجورًا" لهذا البرزخ فنجد معظم الكائنات الحية تنتقل بين البحرين بكل سهولة؛ وذلك لأن الاختلاف في درجة الملوحة ليس شديدًا حتى يمنع انتقالها من بيئة بحرية إلى أخرى.

(٥٢) سورة الفرقان، آية ٥٣.

(٥٣) سورة الفرقان، آية ٥٣.

(٥٤) سورة الرحمن، آية ٢٠ - ٢٢.

وهنا يقف عقل الإنسان متعجبًا، أمام بيان الإعجاز القرآني، وأمام هذا النظام البديع الذي جعله الله - تعالى - لحفظ الكتل المائية الملتقمة، من أن يفسد بعضها خصائص البعض الآخر... ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (٥٥) (٥٦).

ويطيب لنا أن نذكر حادثة فعلية، وقعت لسفينة في عرض المحيط، هذه السفينة كانت تمخر عباب البحر المحيط وفجأة فرغ منها الماء العذب، وكان في السفينة أطفال ورجال ونساء، فصاحوا في طلبه عبر أجهزة اللاسلكي يطلبون من كل سفينة تكون على مقربة منهم أن تمدهم بالماء العذب؛ حتى لا يهلكوا عطشًا...

وجاءهم صوت البشير: ألقوا الدلاء حيث أنتم.

وتعجبوا كيف يلقون الدلاء حيث هم، وتحتهم ماء ملح أجاج، فأعادوا طلب الاستغاثة مرة ومرات، ويأتي صوت البشير مكرراً: ألقوا الدلاء حيث أنتم.

وعندما استجابوا لذلك، وألقوا الدلاء، عادت بالماء عذبًا فرائًا، سائغًا للشاربين. ولكن

كيف تم ذلك؟

لقد كانت سفينتهم تسير قبالة نهر الأمازون، الذي يصب ماؤه العذب في صميم المحيط وهم لا يشعرون (٥٧).

لقد صدق ربي في قوله وحكمته: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٥٨).

وقوله - أيضًا - : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٥٩).

(٥٥) سورة النمل، آية ٩٣.

(٥٦) انظر موسوعة الإعجاز العلمي، يوسف الحاج أحمد، ص ٤٥٠-٤٥١.

(٥٧) راجع المذاهب المعاصرة للدكتور عبد الرحمن عميرة، ص ٧.

(٥٨) سورة الفرقان، الآية ٥٣.

(٥٩) سورة الرحمن، الآيتان ١٩ - ٢٠.

ثالثاً: البحار والمحيطات مستودع البشرية في الطعام والكساء:

إنذارات وتحذيرات قد تصل إلى درجة الهوس تسري بين جنبات الكرة الأرضية، ينادي أصحابها محذرين من تناقص رقعة الأراضي الزراعية؛ لزحف المساكن العمرانية عليها، وتراهم يحدرون - أيضاً - من تزايد عدد السكان عامًا بعد عامٍ؛ لغمر مجتمعاتهم بالوقاية الصحية والرعاية الاجتماعية.

وتراهم يؤكدون أن التربة الزراعية التي كانت تقدم الكثير من الغلال والحبوب قد قاربت من الشيخوخة؛ ولهذا فإن غلتها تتناقص وبعض الأراضي يصيبها العقم، فلا تنتج...؟
ويضيفون إلى ذلك أن الحروب كان لها دورها الكبير في إيجاد التوازن بين قنوات الإنتاج ومتطلبات الاستهلاك.

ولكن الأمم الآن تسعى إلى إقامة السلام وتتواصى فيما بينها بوقف الإعداد للحروب وتدمير أسلحة القتال.

كل هذه الأشياء تجعلهم يتنبؤون للعالم بمجاعة مدمرة لا تبقي ولا تذر، وسيكون لها أسوأ العواقب في القضاء على دول كاملة عن طريق الجوع والمسغبة، وهؤلاء ينظرون إلى الحياة من جانب واحد جانبها المظلم ونسوا أو تناسوا أن الله - سبحانه وتعالى - قد خلق الخلق، وتكفل بأرزاقهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(٦٠).

ما من دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة التي لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم بها إحصاء إلا وعند الله علمها ورزقها.

وقد أوجب الله - سبحانه وتعالى - على نفسه مختارًا، أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعًا، وأودع هذه المخلوقات القدرة على رزقها من هذا المودع في الأرض المبسوطة والبحار التي لا

(٦٠) سورة هود، من الآية ٦.

تحد إما منتجًا بالزراع أو بالصيد، أو مصنوعًا أو مركبًا... إلى آخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده حتى أن بعضها ليتناول رزقه دمًا حيًّا مهضومًا كالبعوض والبراغيث.

والرسول ﷺ يقول: "أيها الناس! اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، فإن نفسًا لن تموت، حتى تستوفي رزقها" (٦١).

ولكن قد يحدث أن الأرض لا تنتج أو يصيب غلتها بعض الآفات الطبيعية وهذا له سبب واحد هو أن بعض البشر ينحرفون عن أداء رسالتهم التي أناطهم الله بها - وهو دور الخلافة في الأرض -.

ويتحول البعض منهم إلى أنصاف آلهة، يدمرون ويفسدون ويتناولون ويخربون عندها يُنزل الله - سبحانه وتعالى - غضبه وعذابه في صورة الجفاف وانقطاع المطر مرة، وفي صورة نقص الغلات، والثمار أخرى.

وقد يتساءل البعض، وما ذنب الكثرة إذا كانت القلة هي التي تقوم بالإفساد...؟ وأتباع إبليس اللعين، هم الذين يملؤون الأرض ظلمًا وضلالًا... هل خصهم الله بالعذاب وحدهم...؟ وأحاطت الفتن بهم بمفردهم...؟

ولكن الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (٦٢).

يحدث هذا لأن الفئة المؤمنة لم تأخذ على أيدي الفئة الباغية ولم يستعملوا ما أمرهم الله به من الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والساكت عن الحق شيطان أخرس، من هنا كان العقاب عامًا وليس خاصًا.

ثم نقول: والدليل على أن خيرات الله - تعالى - لا تنضب، ورزقه لعباده مستمر ودائم أن يجعل البحار والمحيطات مستودعات للبشرية باللحم الطري والطعم الشهوي، وتعتبر

(٦١) الحديث أخرجه ابن ماجه، في التجارات، برقم ٧٢٥/٢.

(٦٢) سورة الأنفال، من الآية ٢٥.

هذه الزيوت من أرقى الأنواع؛ لاحتوائها على كميات عالية من فيتامينات: أ، د لحمًا طريًا؛ لأنه غني بمادة الفوسفور التي تجلو البصر وتقويه وتساعد الأطفال على أن تنمو أجسادهم نموًا صحيًا.

لحمًا طريًا؛ لأن بروتينات الأسماك سهلة الهضم إذا قارناها باللحوم الأخرى من الحيوانات البرية^(٦٣).

ولقد استغل الإنسان من أحياء البحر كل شيء، ومنها: الثدييات، مثل: القرش، والحوت، وكلاب البحر، وسباعه، وغير ذلك.

استغل جلودها في كثير من الصناعات الراقية المفيدة.

واستغل زيوتها في العديد من المأكولات، والأطعمة.

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾^(٦٤)، وقوله سبحانه ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾^(٦٥).

ويمتاز دهن السمك عن دهن اللحم بأنه أسهل هضمًا، كما أن نسبة اليود الموجودة فيه تسهّل على العصارة البنكرياسية مهمة امتصاصه ولذا فيوصف السمك كمورد بروتين ممتاز، للذين لا يستطيعون تناول اللحوم^(٦٦).

واستغل شحومها في تهيئة الكثير من آلات العمل اليدوية وشاحنات البر الثقيلة وناقلات الجو الكبيرة وغواصات البحر العملاقة.

والدليل على أن خيرات الله لا تنضب وورقه لعباده مستمر ودائم، تكفل الله - سبحانه وتعالى - بالرزق وتحديد الأجل. فليس هناك مجال فيهما عن طريق النقص أو الزيادة إلا ما حدده الله - تعالى - في كتابه.

(٦٣) الغذاء لا الدواء، د. صبري القباني ص ٤٨٨ - ٤٩٢.

(٦٤) سورة هود، آية ٦.

(٦٥) سورة العنكبوت، آية ٦٠.

(٦٦) الكون والإعجاز العلمي في القرآن، د. منصور حسب النبي، ص ١٩٣.

رابعاً: البحار مستودع كثير من المعادن، والأملاح النادرة:

البحار تمتلئ مياهها - بفضل الله تعالى - بثروات عديدة، فهي:

أولاً: المصدر الرئيس للأملاح وأكاسيد معدنية كثيرة، مثل: أملاح كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) الذي يستخدم في طعامنا ويستعمل في أعمال النسيج ودبغ الجلود وصناعة الصودا الكاوية، والأحماض.

وأملاح كلوريد وكبريتات المغنسيوم التي تمدنا بعنصر المغنسيوم الهام في صناعة الطائرات؛ لخصته وصلابته ولعمل القنابل المضئية المستخدمة في كشف المواقع وإشارات الاستغاثة في السفن.

وأملاح البروم واليود الهامة في صناعة الأدوية والصبغات.

وأملاح الفوسفور، والنتروجين التي لها أهمية خاصة في مياه البحار بالرغم من تركيزها الضئيل حيث تمتصها الكائنات الدقيقة المعروفة "بالبلانكتون" النباتي الذي يعتبر بدوره مصدر الغذاء لسائر أنواع الحياة البحرية^(٦٧).

وهناك ثروات أخرى معدنية تترسب على شواطئ البحار والمحيطات أمام دلتا الأنهار كالتبر والماس واللؤلؤ، والمرجان المستخدم في الزينة.

وحقول البترول الممتدة تحت الرصيف القاري في أماكن بحرية كثيرة إن قلت موارد الأرض أو تناقصت غلاتها، قال الله - تعالى - ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ﴾^(٦٨).

وصيد البحر: الأسماك بكل أنواعها. وتعتبر الأسماك أساس الثروة المائية، وأولى الكائنات المائية بالدراسة والتعمق؛ ولهذا يقول بعض علماء البحار: "إن صنوف السمك التي تعيش في البحار تزيد على ثلاثين ألف نوع فسبحان الله العظيم الذي خلق فسوى وأبدع هذه الكائنات

(٦٧) راجع كتاب الكون والإعجاز العلمي للقرآن، د. منصور حسب النبي، ١٩٠-١٩١، وكتاب الإعجاز العلمي في

القرآن الكريم، د. حسن أبو العينين، ج ٢ ص ٢٧٦-٢٧٧ بتصرف.

(٦٨) سورة المائدة: من الآية ٩٦.

في أعماق المحيطات! ولقد عرف الإنسان من قديم الزمان طريق البحار؛ ليحصل منها على بغيته من الطعام وما زاد عن حاجته قدمه للتجارة والتربح.

وما زالت الكميات التي تصاد في زيادات مستمرة حتى وصلت حصيلة بعض الدول من أنواع الأسماك المختلفة إلى أكثر من ٢٥ مليون طن.

ويقول البروفيسور "جون ألان جولاند" (رئيس قسم تقويم الثروة السمكية التابع لمنظمة الأغذية والزراعة العالمية):

"إن المحيطات تنتج في كل سنة حوالي ١٣٠ ألف مليون طن من الأسماك والقشريات والرخويات"، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (٦٩).

لحمًا طريًا؛ لأن الأسماك أحد المصادر الرئيسية للبروتينات الغذائية، وفي هذا العصر أخذت بعض الدول في تحويل الأنواع الكبيرة من الأسماك إلى دقيق يصنع منه وجبات شهية تقدم للجيش أثناء قيامهم ببعض المعارك الحربية أو أثناء المناورات التي تستمر العديد من الأيام. ويصنع من النفايات مادة تضاف إلى أعلاف الحيوانات والطيور وذلك لاحتواء الأسماك على نسبة عالية من الدهون والبروتينات والأملاح.

ولقد قامت شركات عملاقة في كثير من الدول التي تقع على شاطئ البحار والمحيطات ببناء العديد من المصانع؛ وذلك لاستخلاص الزيوت من الأسماك، ويجري التفكير - حاليًا - في جميع أنحاء العالم لاستغلال طاقة الأمواج البحرية في توليد الكهرباء واستغلال طاقة المد والجزر.

فنحمد الله - تعالى - حمد الشاكرين القائنين، ونعوذ بالله من الشياطين المبطلين القائنين في كون الله بغير علم (٧٠).

(٦٩) سورة النحل، من الآية ١٤.

(٧٠) القرآن والعلم، د. جمال الدين الفندي ص ٢٢٦، الكون والحياة بين الدين والعلم، د. عبد الرحمن عميرة، ص ١٠٤

الخاتمة والتوصيات:

إن المؤمنين بالله يعلمون أن ما في الكون من مخلوقات دليل على قدرة الله، وأن جميع ما في الكون من نعم الله سواء أكانت نعمًا ظاهرة أم كانت نعمًا باطنة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٧١).

فالعلم والهدى والكتاب المنير إذا اجتمعت صح النظر وكان الخير للإنسان في الدنيا والآخرة، فالنظر القائم على الحق والإنصاف والعلم يقود - حتمًا - إلى الإيمان بالله الواحد القادر الخالق الحكيم.

وإن نعمة واحدة من نعم الله لتقود - إذا صح المنهج واستقامت النية - إلى الإيمان بالله - تعالى - .

والعلم الصحيح مقدمة لإيمان صحيح بالله، ونحن نؤمن بالله ونعلم أن ما جاءنا به محمد ﷺ هو الحق، فنعمه الظاهرة دليل وجوده وقدرته ورحمته، أما نعمه الباطنة فندعو الله أن يكشف لنا منها ما ينفعنا بها في الدنيا والآخرة.

وكثير من الخبراء يؤكد أن الحرب القادمة هي: حرب الماء ومن ثم فإن على الأمة أن تستقصي السبل التي توفر لها الماء وتؤمن حصولها عليها، وأن تسعى لاكتشاف مصادر جديدة ووسائل جديدة للحصول على الماء بالتعرف على مخزونات الهائلة تحت الأرض ومخزونات العذبة تحت قاع البحار، ومعرفة كيفية تحلية مياه البحر بوسائل اقتصادية والسعي نحو استنبات نباتات جديدة تنمو على ماء البحر عن طريق الهندسة الوراثية والتجارب المعملية وغير ذلك من الطرق. ومن الجدير بالذكر أن هناك دراسات عديدة أجريت على المياه المالحة، وكيفية الاستفادة منها، ومن ذلك: دراسة أجراها الأستاذ الدكتور: محمد بن

(٧١) سورة لقمان، الآية ٢٠.

ناصر الدوسري؛ للوقوف على التركيب الكيميائي ومعامل الهضم المعملّي لنبات "السليكورنيا" المزروع على شواطئ الخليج العربي في المملكة العربية السعودية.

وفي هذه التجربة تمت دراسة القيمة الغذائية لنبات "السليكورنيا" الذي زرع خلال الأسبوع الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٩٥م، على شواطئ الخليج العربي في المملكة العربية السعودية، حيث تم الري من مياه البحر مباشرة بدون تخفيف، وقد أشارت النتائج إلى أن البروتين الخام ومعامل الهضم المعملّي للمادة العضوية لنبات "السليكورنيا" ينخفض مع تقدم عمر النبات، بينما محتوى النبات من الألياف الخام يزيد معنوياً، وهكذا تشير النتائج إلى أنه من الممكن الاستفادة من نبات "السليكورنيا" كغذاء للحيوانات. (٧٢)

وأخيراً، نسأل الله أن يديم علينا نعمة الماء، وأن يهدينا إلى طرق استخراجها، والانتفاع به، وأن يرد كيد أعداء الأمة العربية والإسلامية ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٧٣).

(٧٢) العدد (١٤) من المجلة المصرية للعلوم التطبيقية ١٤/٨/١٩٩٩ م التركيب الكيميائي، ومعامل الهضم المعملّي لنبات السليكورنيا، المزروع في شواطئ المملكة العربية السعودية، أ.د: ناصر الدوسري ص ١٧-٢٢
(٧٣) سورة غافر، الآية ٥ .

ثبت المصادر والمراجع

- ١- إبراهيم أحمد شوقي، المعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ٢- أحمد مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.
- ٣- البار محمد علي، خلق الإنسان بين الطب والفقه، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة.
- ٤- الحاج أحمد يوسف، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ، مكتبة دار ابن حجر، دمشق، سوريا.
- ٥- حسب النبي منصور، الكون والإعجاز العلمي للقرآن، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ، دار الفكر العربي، القاهرة.
- ٦- خان وحيد الدين، الإسلام يتحدى، تعريب: ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت.
- ٧- الشرقاوي، محمد عبد الله، القرآن والكون (دراسة تبين الصلة الوثقى بين العقيدة والنظر في الآفاق والأنفس)، الطبعة الثانية ١٤١١هـ دار الجيل، بيروت.
- ٨- ابن أبي طلحة، صحيفة علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير القرآن الكريم، أعتنى بها وحققها وخرجها: راشد عبد المنعم الرجال، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، مكتبة السنة، القاهرة.
- ٩- عميرة، عبدالرحمن:
 - أ- الكون والحياة بين الدين والعلم، دار الجيل، بيروت.
 - ب- المذاهب المعاصرة، مطبعة الاستقامة، سلطنة عمان.

- ١٠- أبو العينين، حسن، من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، مكتبة العبيكان، الرياض.
- ١١- الفندي، جمال الدين، القرآن والعلم، دار المعرفة، القاهرة.
- ١٢- القباني، صبري، الغذاء لا الدواء، الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٠م، دار العلم للملايين، بيروت.
- ١٣- قطب، سيد، في ظلال القرآن، الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ، دار الشروق، بيروت.
- ١٤- ابن كثير، إسماعيل الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، علق حواشيه وقدم له: عبد الوهاب عبداللطيف، صححه وأشرف على طبعه: محمد الصديق، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة .
- ١٥- ابن ماجه، أبو عبد الله، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، دار الدعوة ١٤٠١هـ، استنبول، تركيا.
- ١٦- المجلة المصرية للعلوم التطبيقية، الجمعية المصرية للعلوم التطبيقية، العدد الرابع عشر، ١٩٩٩/٨/١٤ م، مصر.
- ١٧- النجار، زغلول، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، تقديم: أحمد فراج، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ- مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.